14-مقاربات تحليل الخطاب :

إن الهدف من مناقشة القضايا السابقة هو محاولة تعريف تحليل الخطاب، و قلنا سابقا إن ذلك يصعب ما لم تتم الإشارة إلى بعض الإشكالات التي يجدها دارس تحليل الخطاب، ولعل أهم قضية تطرقنا إليها هي موضوع تحليل الخطاب ، و الذي يفترض أن يكون الخطاب نفسه ، و لقد وجدنا أن مفاهيمه متعددة، كما وجدنا أن هذا المصطلح يتعالق مع مصطلحات أخرى على قدر من الأهمية مثل: النص و الملفوظ و القول و التلفظ .و لعل تعدد مفاهيمه بالإضافة إلى مسألة التعالق يُنتج قضايا جوهرية، كونها جزءاً هاماً من الإشكالات المطروحة، و عليه يمكن للدارس أن يطرح أسئلة: ما هو بالتحديد موضوع تحليل الخطاب؟

لدينا عدة إجابات، أو تصورات يمكن إيراد البعض منها على الكيفية الآتية:

التصور الأول:

إذا انطلقنا من منظور هاريس فسيكون تحليل الخطاب هو فرع من فروع الدارسة اللسانية للخطاب. وإذا انطلقنا من منظور العلوم الاجتماعية (دراسة مضامين الخطاب) فسيكون تحليل الخطاب جزءاً منها. و إذا اعتبرنا الخطاب مرادفاً للنص فإن علم النص سيرفض أن يكون الخطاب موضوعه، لأنه قد حدد النص بدقة ليكون بديلا عنه بالإضافة لاستحالة أن يكون للمجالين موضوع واحد .

بالإضافة إلى هذا يمكن أن نشير إلى ظهور تخصصات حديثة كلسانيات النص و التداولية كون الخطاب موضوعها الرئيس . فالأولى تركز على دراسة قضايا انسجام الخطاب و اتساقه. وأما الثانية فهي تدرس اللغة في استعمالها الفعلي والبراغماتي.

إن بسط مفهوم تحليل الخطاب و قضاياه، بهذه الطريقة، سيسهل على الطالب معرفة ماهو تحليل الخطاب، و ما هي القضايا المنضوية تحته، وما طبيعة الإشكالات المطروحة. وباختصار يمكن أن نقول إن مصطلح تحليل الخطاب يطلق عند البعض على فرع من اللسانيات، ومهمته تعيين القواعد التي ترعى إنتاج سلسلة الجمل المبنية، و تسمى هذه المقاربة باللسانية ، و يمكن أن يطلق تحليل الخطاب عند البعض على تحليل مضمون الخطاب و سياقاته ، و تسمى هذه المقاربة بالاجتماعية ؛ و قد يطلق عند طرف ثالث

بالمقاربة المباشرة حيث تدرس أصناف الخطاب المستخدمة في قطاع اجتماعي محدد (مدرسة ، مقهى ، دكان ...) أو تدرس حقول الخطاب (سياسي، علمي ...)، و هذه المقاربة تستفيد من كل العلوم. [1].

التصور الثاني :يمثل هذا التصور أصحاب معجم تحليل الخطاب ،حيث تناولا تحليل الخطاب باعتباره :

1– دراسة للخطاب :" إذا ما اعتبر تحليل الخطاب دراسة له دون تخصيص أدق أي دراسة الاستعمال الحقيقي للغة من قبل متكلمين حقيقين في وضعيات حقيقية (فن ديك **1985**)، فإنه يبدو الفن الذي يدرس اللغة باعتبارها نشاطا راسيا في مقام و منتجا لوحدات تتجاوز الجمل، وباعتباره استعمالا للغة لغايات اجتماعية تعبيرية و إحالية (شفرين **1994**) ، وفي هذه الحالة يعمل تحليل النصوص على تعايش مقاربات (شفرين) شديدة التنوع : تحليل التخاطب ، و إثنية التواصل و اللسانيات الاجتماعية التفاعلية (ج.قمبرز)... إلخ.

2 – دارسة للتحادث : عند كثير من الباحثين خاصة في البلدان الانغلوسكسونية، إذ يعتبرون الخطاب نشاطا أساسيا ،يماهون قليلا أو كثيرا تحليل الخطاب بالتحليل التحادثي .ويقابل ليفنسون (**1983**) في مجال التحليل التحادثي بين تيارين : تحليل الخطاب القائم على تحليل النصوص التحادثية تحليلا لسانيا ، و بالمعنى الدقيق الذي يندرج في حركة الإثنية المنهجية، و يمثل التيار الأول لسانيون أمثال سنكلار، وكلتار، أو الأعمال الأولى لمدرسة جنيف (رولاي) .و قد تبنى هذا التمييز ج.مشلار و آ .ربول .

3– وجهة نظر خاصة إلى الخطاب : وذلك في كثير من الأعمال المستوحاة من اللساني البريطاني هاليداي تتمثل الغاية القصوى لتحليل الخطاب في أن نبرز و نؤول في أن واحد العلاقات التي بين انتظامية اللغة و المدلولات و الأهداف المعبر عنها من خلال الخطاب ، لكن لسنا مضطرين لأنْ نفكر تفكيرا غائيا لنرى في تحليل الخطاب فنا لا ينحصر في تحليل النص تحليلا لسانيا، ولا في تحليل اجتماعي أو نفساني للمقام، ففي نظر مانغونو ليس موضوع تحليل الخطاب التنظيم النصي في حد ذاته ولا مقام التواصل ، و إنما ينبغي أن يكون " نظرا في آليات التلفظ التي تصل تنظيما نصيا محددا بموقع اجتماعي معين. ومن

---

[1] -ينظر المرجع السابق ، ص44،45.

هذا المنظور فإن لتحليل الخطاب صلة خاصة بأجناس الخطاب. و باعتبار تحليل الخطاب فنا من فنون دراسة الخطاب، فإنه يمكنه أن يهتم بنفس المدونات التي تتناولها اللسانيات الاجتماعية و التحليل التحادثي، لكنه يهتم بها من وجهة نظر أخرى مع اعتماده هذه الفنون في آن واحد، فدراسة عيادة طبية مثلا تدعو الدارس إلى أن يأخذ بعين الاعتبار قواعد الحوار (موضوع التحليل التحادثي)، والتنويعات اللغوية (موضوع اللسانيات الاجتماعية) و طرق الحجاج (موضوع البلاغة)، لكن هذه الروافد المتنوعة تدمج في مجال بحث له مرمى مغاير [2]".

إن تحليل الخطاب هو غاية في عدم الاستقرار لوجوده في ملتقى العلوم الإنسانية، من حيث توجد تحليلات للخطاب تغلب عليها الصبغة الاجتماعية، وأخرى تغلب عليها الصبغة اللسانية، وثالثة تغلب عليها الصبغة النفسانية ، ويضاف إلى هذا التفريع ما بين التيارات من اختلافات، هكذا فإن تحليل الخطاب شديد التأثر في الولايات المتحدة بالأنثروبولوجيا . وبغض النظر عما لهذا الباحث أو ذاك من اختيارات شخصية، فإنه توجد جاذبية طبيعية بين بعض العلوم الاجتماعية ، و بعض فنون تحليل الخطاب، بين الباحثين في الوسائط، و علم الاجتماع ، أو علم الاجتماع النفسي، و بين الدارسين للتحادث الانتروبولوجيا، و بين الدارسين للخطابات المؤسسة، والتاريخ أو الفلسفة .

وتحدث الدارسان – تتمة لهذا الموضوع–عن بعض الأقطاب الكبرى في تحليل الخطاب :

تنوعت مدونات تحليل الخطاب شيئا فشيئا ، إذْ نشاهد سقوطا شاملا للحواجز بين البحوث، و يرجع هذا إلى فتح الحوار بين مختلف الفنون التي تتناول الخطاب، وبين مختلف تيارات تحليل الخطاب ، و مع ذلك باستطاعتنا التمييز بين بعض الأقطاب الكبرى على النحو الآتي:

1– الأعمال التي تدرج الخطاب في تيار التفاعل الاجتماعي.

2– الأعمال التي تعطي مكانة خاصة لدراسة وضعيات التواصل اللغوي و من ثمة لأجناس الخطابات .

---

[2] - المرجع السابق: ص44،45.

3- الأعمال التي تربط بين الاشتغالات الخطابية وظروف إنتاج المعارف أو تموقعاتها الإيديولوجية.

4- الأعمال التي تعطي المكانة الأولى للتنظيم النصي، أو رصد سمات التلفظ .

بالإضافة إلى هذا، لا ترمي عديد البحوث المنتمية إلى تحليل الخطاب إلى تفهم انشغالات خطابية بالدرجة الأولى، وإنما تكتفي بدراسة ظواهر محدودة جدا لوضع تأويلات لمدونات حساسة إيديولوجيا ، و في هذه الحالة، فإن ما يوفره تحليل الخطاب من معلومات يوضع في خدمة مرمى نضاليّ، و هكذا فقد كان لمدرسة الستينات الفرنسية مرمى نضالي يعتمد نظرية للخطاب ذات منزع تحليلي نفسي ماركسي .

و أما تيار التحليل النقدي للخطاب الأحدث عهدا، فيهدف إلى دراسة أشكال السلطة التي تقوم من خلال الخطاب بين الأجناس و الأعراق و الطبقات الاجتماعية، قصد العمل على تطويرها (فن ديك 1993، و فوكو 1996) و لنذكرضمن إطار نظري مغاير أعمال ج.أ سرفاتي حول معاداة السامية ؛إن هذا التمشي يتعرض لتساؤل لا مفر منه :أفلا يتضمن إبراز ما في النصوص من إيديولوجية أخرى لدى المحلل ؟...

إن هذا التمشي يتعرض لتساؤل لا مفر منه مُفاده: أفلا يتضمن إبراز ما في النصوص من إيديولوجية أخرى لدى المحلل ؟ (ويدروسن 1995. دي بقراند 1999) .

التصور الثالث:

تحدثت سارة ميلز في كتابها الموسوم بـ"الخطاب "عن ثلاث فئات من أصحاب النظريات يختلف تعريف الخطاب عند كل منهما اختلافا طفيفا ، وهذه الفئات هي :فئة تحليل الخطاب ، و فئة علم النفس الاجتماعي ، و فئة الخطاب النقدي .

تتميز الفئة الأولى بانصرافها إلى تحليل اللغة في السياق ، و لا يعني هذا أنها تلتلقي مع نظرة ميشال فوكو للخطاب لأنه " في علم اللغة ، و لاسيما في تحليل الخطاب ، يستعان بالخطاب في توصيف بنية تمتد إلى ماوراء حدود الجملة .و بالاستعانة بقياس بنية الجملة و مكوناتها الداخلية (الفعل و الفاعل و المفعول أو الاسم و الفعل و المتمم) .هناك افتراض بأن العناصر فوق مستوى الجملة تشمل بنى مماثلة .و هذا المعنى للخطاب أوجده في المقام الاول لغويون يرتبط كثير منهم بالبحث في اللغة الأنجليزية في جامعة

برمنجهام (...)حيث اوجدوا نمطا خاصا لتحليل الخطاب ، و هو تحليل البنى في العبارات المنطوقة أو النص المكتوب فوق مستوى الجملة "[3]

بينما تركز الفئة الثانية على الوحدات البنوية التي تتجاوز الجملة مع اهتمامها بقضايا السلطة ، و تحليل النص ،و قضايا جمع البيانات ، و الحوار . و تستقي هذه الفئة مناهجها من ميشال فوكو ،كما تستعير مناهج الفئة الأولى.تقول سارة ميلز عن هذا التيار :" و اعتمد باحثون في علم النفس الاجتماعي من أمثال جوناثان بوتر و مارغريت ويذرل و سيليا كيتسنجر و سو ويلكسون على المناهج التحليلية التي نشأت ضمن تحليل الخطاب و أيضا ضمن المنهجية العرقية و تحليل الحوار لإيجاد نوع من التحليل يحلل الكلام و لا سيما بنية النقاش " [4]

و تهتم الفئة الثالثة بقضايا السلطة ، و السياسة ، و الانفتاح على النقد الماركسي.و يشارك المنتمون لهذه الفئة أصحاب الرأى الأول حينما يتخذون من علم اللغة معيارا لأبحاثهم .كما أنهم متأثرون بأعمال فوكو في جانب كبير منها ،"يقولون إن اللغة أداة محورية في العملية التي تشكل الناس باعتبارهم أفرادا و ذوات اجتماعية ، و بما أن اللغة و الإيديولوجيامتداخلتان بصورة وثيقة ،فإن التحليل النظامي الدقيق للغة النصوص يمكن أن يكشف بعضا من جوانب النصوص و بصورة أعم الطريقة التي يقهر بها الناس في البنى الاجتماعية الراهنة "[5].

و تنتهي الدارسة إلى نتيجة ،و هي اهتمام أصحاب الفئات الثلاث بالخطاب الشفهي و المكتوب على حد سواء ،مع تباينهم في درجة الانتساب إلى علم اللغة ، أو علم النفس الاجتماعي ، أو النظرية الثقافية ما أثر على تحليلاتهم التي اختلفت اختلافا واضحا.

يمكننا من جهتنا أن ننتهي إلى نتيجة ، و هي أن التصورات السابقة لا تعكس حقيقة الدراسات التي تجري تحت اسم تحليل الخطاب، ولا تبين الصعوبة التي يجدها الدارس في التمييز بين المقاربات المختلفة له،و ربما يعود السبب إلى تداخل معارف الدارسين و تباين تخصصاتهم بالإضافة إلى تعدد المناهج المستخدمة في التحليل.و يمكن الإشارة في هذا

---

[3] -سارة ميلز: الخطاب ، ترجمة عبد الوهاب لعوب ، ص146.
[4] -المرجع السابق ، ص146.
[5] -المرجع نفسه :ص148.

المقام أن جون ميشال آدم J.M.Adam قد أحصى ست مقاربات في تحليل الخطاب ،و هي المقاربة اللغوية ،و المقاربة التفاعلية الحوارية ،و المقاربة العامة ، و المقاربة الأسلوبية ،و المقاربة النصية ،و المقاربة التواصلية.و تضم المقاربة اللغوية فقط عديد التيارات و الاتجاهات ،و من أشهرها مقاربة التحليل السيمائي للخطاب السردي و التي سنخصص بحثا مستقلا ، كما تضم مقاربات التحليل البنوي للخطاب السردي و التي خصصنا لها مطبوعة مستقلة بعنوان تحليل الخطاب و السرديات.

إجمالا يمكن أن نتحدث عن الطرح السابق الذي حصر تحليل الخطاب في ثلاث مقاربات (المقاربة اللسانية ، و المقاربة الاجتماعية و المقاربة المباشرة)، و هو الأكثر انتشارا و تداولا ، و هو يتردد بصور مختلفة في الكثير من الدراسات و تحت مسميات كثيرة – كما رأينا–، و لعل ذلك يعود إلى اختلاف المنطلقات المنهجية و المعرفية لدى الدارسين .